
@ketab_n
31.12.2015
غسان كنفاني
القميص المسروق

قصص قصيرة

غسان كنفاني

القميص المسروق

منشورات الرمال



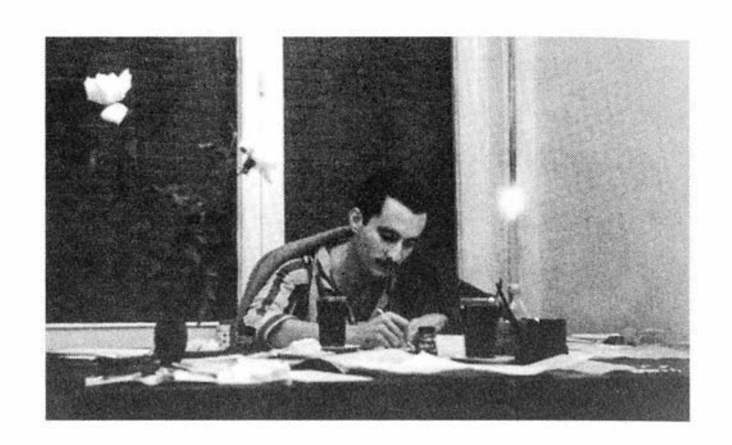
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
طبعة سنة 2014، 2015

ISBN 978-9963-610-92-1

نشرت هذه القصص في طبعتها الأولى سنة 1982
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف: ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف: لوحة لغسان كنفاني
طباعة: مطبعة كركي - بيروت



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة.كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

المحتويات

القميص المسروق

رفع رأسه إلى السماء المظلمة وهو يقاوم شتيمة كفر صغيرة أوشكت أن تنزلق عن لسانه، واستطاع أن يحس الغيوم السوداء تتزاحم كقطع البازلت، وتندمج ثم تتمزق.

إن هذا المطر لن ينتهي الليلة، هذا يعني أنه لن ينام، بل سيظل منكباً على رفشه، يحفر طريقاً تجر المياه الموحلة بعيداً عن أوتاد الخيمة، لقد أوشك ظهره أن يعتاد ضرب المطر البارد.. بل إن هذا البرد يعطيه شعوراً لذيذاً بالخدر.

إنه يشم رائحة الدخان، لقد أشعلت زوجه النار لتخبز الطحين، كم يود لو أنه ينتهي من هذا الخندق، فيدخل الخيمة، ويدس كفيه الباردتين في النار حتى الاحتراق، لا شك أنه يستطيع أن يقبض على الشعلة بأصابعه، وأن ينقلها من يد إلى أخرى حتى يذهب هذا الجليد عنهما.. ولكنه يخاف أن يدخل هذه الخيمة، إن في محاجر زوجه سؤالاً رهيباً ما زال يقرع فيهما منذ زمن بعيد، لا، إن البرد أقل

قسوة من السؤال الرهيب. ستقول له إذا ما دخل وهي تغرس كفيها في العجين، وتغرس عينيها في عيونه: هل وجدت عملاً؟ ماذا سنأكل إذن؟ كيف استطاع (أبو فلان) أن يشتغل هنا، وكيف استطاع (أبو علتان) أن يشتغل هناك؟ ثم ستشير إلى عبد الرحمن المكور في زاوية الخيمة كالقط المبلول، وستهز رأسها بصمت أبلغ من ألف ألف عتاب.. ماذا عنده الليلة ليقول لها سوى ما يقوله في كل ليلة..

- هل تريدينني أن أسرق لأحل مشاكل عبد الرحمن؟

ونصب قامته بهدوء لاهث، ثم ما لبث أن عاد، فاتكأ على الرفش المكسور، وأنشأ يحدق بالخيمة الداكنة مستشعراً قلقاً عظيماً وهو يسأل نفسه:

- وماذا لو سرقت؟

إن مخازن وكالة الغوث الدولية تقع على مقربة من الخيام، إن قرر أن يبدأ فهو يستطيع بالتأكيد أن ينزلق إلى حيث يتكدس الطحين والرز، من ثقب ما سيجده هنا أو هناك، ثم إن المال ليس حلال أحد، لقد أتى من هناك، من عند ناس قال عنهم أستاذ المدرسة لعبد الرحمن إنهم «يقتلون القتيل ويمشون في جنازته» فماذا يضرّ الناس لو أنه سرق كيس طحين.. كيسين.. عشرة؟ وماذا لو باع شيئاً من هذا الطحين إلى واحد من أولئك الذين يتمتعون

بقدرة عظيمة على استنشاق روائح مسروقات، وبقدرة أعظم في المساومة على ثمنها؟

ولذت له الفكرة، فدأب بعزم أشد على إتمام حفر الخندق فيما حول الخيمة وأخذ يسأل نفسه من جديد أن لماذا لا يبدأ مغامرته منذ الآن؟ إن المطر شديد والحارس مشغول بأمر البرد أكثر من انشغاله بمصلحة وكالة الغوث الدولية، فلماذا لا يبدأ الآن؟ لماذا؟

– ماذا تعمل يا أبا العبد؟

ورفع رأسه إلى جهة الصوت، وميز شبح أبي سمير قادماً من بين صفي الخيام المغروسة إلى ما لا نهاية الظلمة..

– إنني أحفر طحيناً..

– تحفر ماذا؟

– أحفر.. أحفر خندقاً..

وسمع ضحكة أبي سمير الرفيعة التي سرعان ما تلاشت في ثرثرته:

– يبدو أنك تفكر بالطحين، إن التوزيع سيتأخر إلى ما بعد العشرة الأيام الأولى من الشهر القادم، أي بعد خمسة عشر يوماً تقريباً، فلا تفكر منذ الآن إلا إذا كنت تنوي أن تستعير كيساً أو كيسين من المخزن..

ورأى ذراع أبي سمير تشير باتجاه المخازن، ولمح على شفتيه السميكتين ظلاً لابتسامة خبيثة، وشعر بصعوبة الموقف، فعاد يضرب الأرض برفشه المكسور.

– خذ هذه السيكارة.. ولكن لا، إنك لن تستفيد منها فالمطر مزعج.. لقد نسيت أن السماء تمطر، عقل من الطين.. مثل الحجر..

وأحس بضيق يأخذ بخناقه، إنه يكره أبا سمير منذ زمن بعيد، هذا الثرثار الخبيث:

– ما الذي أخرجك في هذا المطر؟

– خرجت.. خرجت لأسألك إن كنت تريد المساعدة.

– لا.. شكراً..

– هل ستحفر طويلاً؟

– معظم الليل..

ألم أقل لك أن تحفر خندقك في النهار؟ إنك دائماً تذهب إلى حيث لا أدري وتترك الخيمة.. هل تذهب للبحث عن خاتم سليمان؟

– لا.. عن شغل..

ورفع رأسه عن الرفش وهو يلهث..

– لماذا لا تذهب لتنام وتتركني وحدي؟

واقترب منه أبو سمير بهدوء جم ووضع كفّه الكبيرة على كتفه يهزها ببطء وهو يقول بصوت مخنوق:

– اسمع يا أبا العبد، إن رأيت الآن كيس طحين يمشي من أمامك فلا تذع الخبر لأحد!

– كيف؟

قالها أبو العبد وصدره ينبض بعنف، وشم رائحة التبغ من فم أبي سمير وهو يهمس وقد فتح عيونه على وسعها:

– هناك أكياس طحين تمشي في الليل وتذهب إلى هناك..

– إلى أين؟

– إلى هناك..

حاول أبو العبد أن يرى إلى أين يشير أبو سمير ولكنه وجد ذراعيه مسدلتين على جنبيه، بينما سمع صوته يهمس ببحة عميقة:

– ستأخذ نصيبك.

– هل هناك ثقب تدخلون منه؟

ورفع أبو سمير رأسه نافياً ومفرقعاً لسانه بمرح، ثم همس بصوت نصف مبحوح:

– إن أكياس الطحين تخرج لوحدها... إنها تمشي!

– إنك مجنون..

– لا، بل أنت المسكين... اسمع، ولندخل في الموضوع مباشرة، إن ما علينا هو أن نخرج أكياس الطحين من المخزن ونذهب بها هناك، إن الحارس سيمهد لنا كل شيء كما يفعل دائماً، إن الذي سيتولى البيع ليس أنا، ولا أنت، إنه الموظف الأميركي الأشقر في الوكالة.. لا، لا تعجب، كل شيء يصبح جائزاً ومعقولاً بعد الاتفاق. الأميركي يبيع، وأنا أقبض، والحارس يقبض.. وأنت تقبض، وكله بالاتفاق، فما رأيك؟

وشعر أبو العبد أن القضية أشد تعقيداً من سرقة كيس أو كيسين، أو عشرة، وراوده شعور لزج بالقرف من المعاملة مع هذا الإنسان.. ثقيل الدم كما تعارفوا عليه في المخيم كله.. ولكنه في الوقت ذاته راقه أن يعود يوماً إلى خيمته وفي يده قميص جديد لعبد الرحمن، وأغراض صغيرة لأم العبد بعد هذا الحرمان الطويل، كم ستكون ابتسامتهما جميلتين، إن ابتسامة عبد الرحمن، لوحدها، تستحق المغامرة لا شك، ولكنه لو فشل.. أي مصير أسود ينتظر أم العبد وولدها.. يومها سيحمل عبد الرحمن صندوق مسح الأحذية ليتكور في الشارع هازاً رأسه الصغير فوق الأحذية الأنيقة، يا للمصير الأسود، ولكنه لو نجح فسيبدو عبد الرحمن إنساناً جديداً، وسيقتلع من عيون زوجه ذلك السؤال المخيف. لو نجح، فستنتهي مأساة

الخندق في كل ليلة ممطرة، وسيعيش حيث لا يستطيع أن يتصور الآن..

– لماذا لا تترك هذا الخندق الملعون، لنبدأ قبل أن تشرق الشمس؟

نعم لماذا لا يترك الخندق.. إن عبد الرحمن يلهث من البرد في طرف الخيمة، ويكاد يحس أنفاسه تلفح جبينه البارد.. كم يود لو أنه ينتشل عبد الرحمن من هزاله وخوفه، لقد أوشك المطر أن ينقطع، وبدأ القمر في السماء يمزق طريقاً وعراً..

وأبو سمير، ما زال واقفاً أمامه كالشبح الأسود، غارساً قدميه الكبيرتين في الوحل، رافعاً ياقة معطفه العتيق إلى ما فوق أذنيه، إنه ما زال واقفاً ينتظر، هذا الإنسان الواقف أمامه، يحمل معه قدراً جديداً غامضاً، يساومه ليرفع معه الأكياس من المخزن، إلى مكان ما، يأتيه الأميركي كل شهر ويقف أمام أكوام الطحين يفرك راحتيه النظيفتين، ويضحك بعيون زرقاء كعيون قط يتحفز أمام جحر فأر مسكين.

– منذ متى وأنت تتعامل مع هذا الحارس وذلك الموظف؟

– هل تريد أن تحقق معي أم تأخذ ثمن الطحين وتذهب لتشتري الشياطين؟ اسمع إن هذا الأميركي صديقي، وهو إنسان

يحب العمل المنظم، إنه يطلب مني دائماً أن أضع الوقت بالمقدمة. وهو لا يحب التأخير في المواعيد.. علينا أن نبدأ الآن. اسرع.

وعاد يتصور الأميركي واقفاً أمام أكياس الطحين، يضحك بعيون زرقاء ضيقة ويفرك راحتيه النظيفتين بحبور وطمأنينة، فشعر بضيق غريب، وخطر له أن ذلك الأميركي كان يبيع الطحين في الوقت الذي كان يقول فيه لرجال المخيم ولنسائه إن توزيع الإعاشة سيتأجل إلى نهاية الأيام العشرة الأولى من الشهر، وأحس بنقمة طاغية، هي صدى لإحساساته يوم كان يرجع من المخازن ليقول لزوجته بصوت كسير إنهم أجلوا توزيع الطحين عشرة أيام، كم هي مؤلمة خيبة الأمل التي كانت ترتسم في وجهها الأسمر المجهد، لقد كان يحس الغصة تتعلق بألف ذراع في حنجرته وهي تنظر بصمت مريع إلى كيس الطحين الفارغ يتأرجح على ذراعه كالمشنوق.. لقد كانت تعني في نظرتها تلك أن عشرة أيام ستمضي قبل أن يجدوا طحيناً للأكل. كان يبدو له أيضاً أن عبد الرحمن يفهم الموقف تماماً، لقد كان يكف عن طلب الأكل بإلحاح..

في كل خيام قريةِ النازحين كانت العيون المتلهفة تقع في خيبة الأمل ذاتها، كان على كل طفل في المخيم أن ينتظر عشرة أيام ليأكل خبزاً. هذا إذن هو سبب التأجيل، أبو سمير الواقف أمامه

كالشبح الأسود، غارساً قدميه في الطين قلقاً لمصير مساوماته، هو والأميركي الذي يفرك راحتيه النظيفتين أمام أكوام الطحين وهو يضحك بعيون زرقاء ضيقة.

لم يدرِ كيف رفع الرفش إلى ما فوق رأسه وكيف هوى به بعنف رهيب على رأس أبي سمير.. ولم يدرِ أيضاً كيف جرته زوجه بعيداً عن جسد أبي سمير، وهو يصيح في وجهها أن الطحين لن يتأجل توزيعه هذا الشهر..

كل ما يدريه هو أنه عندما وجد نفسه في خيمته مبلولاً يتقطر ماء ووحلاً، ضمّ إلى صدره ولده عبد الرحمن وهو يحدق في وجهه الهزيل الأصفر..

كان لا يزال راغباً في أن يراه يبتسم لقميص جديد..

فأخذ يبكي...

الكويت، ١٩٥٨

إلى أن نَـعود

.. مع أشعة الشمس التي كانت تأكل رأسه وهو يضرب وحيداً في صحراء النقب، كان يسمع صخب أفكاره في رأسه كأنه مجموعة مسامير تدق.. ولا تنغرس.

إن أنفه يعمل الآن تماماً كما تعمل البوصلة، وهو يشعر أنه يقترب من هدفه، إنه يعجب لنفسه كيف لم ينقطع عن التفكير العنيف طوال هذه الساعات الممضة، لقد فكر في هذه الساعات كما لم يفكر أبداً طوال ثماني سنوات.

ويغرس قدميه في الرمال الناعمة، ويقتلعهما كما تقتلع قطعة الخشب العتيقة عن غراء لم يجف بعد كما يجب، ثمة أحاسيس ضخمة تمتلك عنه ذكرياته، إن هذه الأحاسيس لتتداخل في بعضها وتتشابك حتى ليشعر أنها لازمته زمناً طويلاً، ويصعب عليه الآن أن يتصور نفسه كيف كان بدونها.. إنه عطشان إلى حد يشعر فيه بأن حلقه أضحى جافاً جامداً، فلم يعد ثمة ضرورة لبقائه، ويشعر

بالتالي إنه تعب، مرهق، يكاد يتهاوى، كأنما انتهى لتوه من شد قارب كبير من البحر إلى رمل الشاطئ المبلول..

لكنه مع هذا كله، كان يسير مندفعاً كأنه يسابق نفسه، كان نصفه العلوي يتقدم منحنياً عن بقية جسده.. فالرمل الناعم يعيق سرعة قدميه، كان قصيراً، أسمر البشرة، محروقاً، لم يكن في وجهه أي شيء يستلفت النظر لأول وهلة، كل ما هنالك أن لفمه شفتين رقيقتين تنطبقان في تصميم، إن شكل وجهه يثير في الإنسان - لدى تدقيق النظر - شعوراً بأنه يشاهد حقلاً صغيراً، بل وأكثر من هذا، فإن الخطين اللذين يشقان جبهته يحب الإنسان أن يشبههما بآثار «شفرات» محراث مرّ لتوه من ذلك المكان..

لقد بدأت رائحة أرضه تذيب أحاسيسه، شيء جميل أن يشم المرء جزءاً من ماضيه، إن رأسه الآن تنفتح كأنها صندوق عرس منقوش بالصدف ويحوي كل شيء، ويرى فيه داره الصغيرة الرطبة، وزوجه ترش التراب بالماء، ثم يرى نفسه آتياً من حقله بقدميه الموحلتين، إن الصورة يراها أمامه هكذا، بل وأكثر من هذا، كأنه يستعيد منظراً عاشه قبل دقائق فحسب، إنه يرى الصورة بكل تقاطيعها الدقيقة، حتى ليرى نفسه كيف يسير، لم يتيسر له قبل الآن أن يراقب سيره بهذا الوضوح وهذا الإمكان.

وهو يقترب من أرضه، هكذا كان يشعر في أعماقه عندما بدت له أول بيارة من بيارات أهل قريته، ابتدأ الصوت الذي ودعه على فوهة النقب الجنوبية يدق رأسه، ويتجاوب صداه في جسده:

– هي أرضك، ألم تعش هناك؟ حسناً، إنك تعرفها أكثر من سواك، في واحد من الحقول بنى اليهود خزاناً يسقي المستعمرات القريبة، أعتقد أنك فهمت، إن الديناميت الذي تحمله يكفيك...

لم يتكلم بعدها، بل انطلق عبر النقب وحيداً، وحيداً إلا من هذه الزوبعة التي تثور في أعماقه.. وها هي أرضه، حيث درج يلهو، تستلقي في أحضان الجبل باستسلام.

وانزلق بين الحقول الخالية في حذر، مستمداً من رائحة ترابه شعوراً بقدرة لا تقهر، وأصابعه تطبق على سكينه في تهيؤ «وحشي». إن رأسه تشتط به وتختلط في تاريخ الحقول التي يعرفها جيداً، ويجد عنتاً شديداً في العودة إلى الحقيقة..

وعندما استدار حول حقل كان لأبي حسن – جاره – في يوم من الأيام، رأى نفسه يشدّ رأسه عالياً وهو يرقب بشعور غامض خزان المياه، يرتفع كأنما ليصل الأرض بالسماء.. يؤمّن الماء للأرض التي كان يجهد ليؤمن لها الماء. لكنه ساءه أن يقف الخزان، هكذا، في الحقل المعطاء.. إنه بوقوفه هذا يشوه إحساساً جميلاً أحسه

هو، وجميع جيرانه، طوال حياتهم.. إنهم، الفلاحين، يحسون الأرض إحساساً بينما ينظر سواهم إليها كمشهد عابر، إن أي حقل يبعث بالفلاح شعوراً تلقائياً بأنه – ذلك الحقل – يحرس عادة كل شيء فيه حراسة صميمية، إن الحقل، أي حقل، يلقي على موجوداته ظلّ الأبوة مهما عظمت، فيشعر الإنسان إنها في حماية قوة غامضة، هائلة، مخيفة، لكنها محببة..

ولكن الخزان يدمر هذا الإحساس، وهو واقف هناك كحقيقة مرّة تعطيه نوعاً آخر من المشاعر، بل إنه يحس إحساساً عميقاً ساكناً بأن الأرض نفسها ترفض الخزان.. لا تريد أن تحميه، إنه يعني شيئاً آخر، غير الري والماء، شيئاً كبيراً دامياً كالمأساة.

وحبس أنفاسه وهو يرقب من خلال العواسج أرضه التي سكب عليها عرقه ليخلقها من العدم، ها هو ذات البيت الصغير الذي كان يأوي إليه مع زوجه أيام العمل المتواصل في موسم الحصاد، فلقد كان بيتاً جميلاً على ما فيه من تواضع، أما الآن، فلقد تهدمت ناحية منه، والناحية الثانية التي تتكئ على صخور الجبل قد علاها الغبار وصبغتها ذرات رصاصية من دخان (الموتور)، إن الخزان يقتحم حياته بشكل مزعج، لقد أقيم في الساحة التي كان يجلس فيها وزوجته قبل أن يناما، يتحدثان فيها عن الذرة والقمح، لقد كان في

مكان قائمة الخزان الأقرب للدار شجرة إجاص فريدة في نوعها، كان يحبها ويعتني بها، هنا، قرب الباب المتداعي كانت تنام زوجه ليالي الصيف، كان في تلك الأيام يدعو جيرانه للجلوس، فتسرع زوجته وترش الساحة بالماء فتكسبها رطوبة محببة.

وفجأة، وبدون أي سابق إعلام، سقطت من أعماقه اللاواعية إلى حياته الواعية صورة مدوية مروعة، اجتاحته كالطوفان، هوت إلى حواسه كلها دفعة واحدة فشغلتها كلها. قبل أن يرحل بيوم واحد.. بيوم واحد فقط، دخل اليهود إلى البيارات، ووجد أن عليه أن يترك – ولو إلى حين – ذلك العطاء.. وجرّ زوجه وترك أرضه، وسار.. إلا إنه قبل أن يجتاز باب حقله المقطع، دنا إلى زوجه، وألفى نفسه مشدوداً إلى دمعة كبيرة في عينيها الواسعتين.. كأنما هي ذوب حنين.. كان يريد أن يقاوم لكنه رأى نفسه محاطاً بالتساؤلات التي غرستها دمعة زوجه في عروقه الزرقاء: إلى أين؟ وأرضك؟ أليس من الأفضل أن تعيد إلى التراب عطاءه لحماً ودماً؟

ودون أن يتكلم، سحب زوجه من يدها إلى حقله، ولم يستطع أبداً أن يحرر نفسه من النداء الطيب في العيون الواسعة..

في تلك الليلة.. شنق اليهود زوجه على الشجرة العجوز بين الساحة والجبل، إنه يراها مدلاة عارية تماماً.. كان شعرها محلوقاً

ومربوطاً إلى عنقها وينزف من فمها دم أسود لماع.. لقد شدوا خصرها النحيل شداً مجنوناً، لم يكن في وجهها كله، ما يشير إلى أنها كانت، قبل هنيهة، تملأ الساح رصاصاً وناراً ودماً، في ذلك الوقت، كان هو مربوطاً إلى الشجرة المقابلة يشهد كل ما فعلوه عاجزاً، لقد شدوه إلى الشجرة بحبال الحراثة بعد أن سلخوا ظهره بالكرابيج الجلدية طوال بعد الظهر، وتركوه يشهد كل شيء، تركوه يحدق ويصيح كالمجنون.. لقد حشوا فمها بالتراب عندما قالت له: «مع السلامة» وماتت.. وتركوه يمضي كي يموت بالصحراء مع ذكرياته..

إنه لا ينظر الآن إلى هذه الصورة نظرة المشاهد، لا، أبداً، إنها تتفاعل بأعماق أعماقه ويحسها ويراها تنسكب على أعصابه كالرصاص المذاب، إن ذاته تتفاعل الآن مع الماضي بشكل عجيب، لم يستطع أن يخلع نفسه من الصورة الدموية، ولا أن يخلعها من نفسه، كان حاضره يمتزج بماضيه مزجاً معقداً، إن صوت استغاثات زوجه وأنينها المقطع المحروق، وصوت أسنانها تمضغ التراب، وصوت حنجرته وهي تطبق على صياحه في بحات هستيرية، كل هذا، كان يمتزج امتزاجاً متشابكاً بصوت الانفجار المريع، وصوت الخزان العملاق يُقتلع من الوجود..

ويمتص الدخان الأسود بعض أحاسيسه الدامية، ويرنو إلى

الحطام بهدوء صاخب..



لقد عاد في المساء إلى خيمته، كان متعباً منهوكاً، يحس كأنما قد تباعدت مفاصله عن بعضها، وعلى عضلاته أن تتوتر إلى الأبد كيما تنشدّ بينها، وأحس وهو يصافح الإنسان الذي ودعه قبل أن يذهب إلى مهمته أنه لا زال في المعركة التي بدأت منذ زمن بعيد.. وسمع صوته:

– ماذا؟ هل انتهى كل شيء على ما يرام؟

وهز رأسه في إعياء.. وعاد يسمع صوت الرئيس:

– هل أنت تعب؟

وهزّ رأسه نفياً وهمس بصوته العميق المجروح:

– هل أعددت مهمة صباح الغد؟

ووصله صوت رئيسه من بعيد:

– ولكنك لا تستطيع أن تتابع غداً.. يجب أن تستريح..

ودون أن يفكر أجاب:

– بل أستطيع..

- إلى متى تحسب أنك تستطيع أن تواصل على هذه الصورة؟

قال وهو يسند رأسه على كيس المتفجرات:

- إلى أن نعود...

دمشق، ١٩٥٧/٦/٢٤

المدفع

لقد عرفه الجميع.. وكادوا أن يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها: وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما بأُخدود يعين طرف أنفه العلوي، وأنفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف، يتدلى، فيخفي شفته العليا.. أما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة، كأنها قطعت لتوها من صدره، ومن ثم، بردت رقبته الثخينة برداً.

إن سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه، إنه دائماً يتحدث عما سيأتي، وما ينفك يعتقد أن غداً سيكون أحسن من اليوم، ولكن أهل السلمة كانوا يتناقلون فيما بينهم، بشيء كثير من المبالغة، أخبار سعيد الحمضوني أيام كان يقود حركات ثورية في ١٩٣٦، يقولون – هناك في القرية – إن سعيداً أطلق سراحه من المعتقل لأنه لم يدن.. ويقال إنه لم يقبض عليه بعد، ومهما يكن، فهو الآن يملأ القرية، ويربط الصبيان بوجهه كل أحاسيسهم

وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز.. وليد المغامرة القاسية..

لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا، وأحضر معه رشاشاً من طراز «الماشينغن»، كان قد قضى قرابة أسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات، ومع أن سكان السلمة كانوا على يقين كبير أن ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن أن يجمع من التبرعات، فلقد آثروا أن يسكتوا، لأن وصول المدفع الرائع أهم بكثير جداً من طريقة وصوله، فالقرية في أشد الحاجة إلى أي نوع من أنواع السلاح، فكيف إذا حصلت على سلاح من نوع جيد؟

لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري! إن هذا المدفع، مدفع «الماشينغن»، كفيل بردّ أي هجوم يهودي مسعور، إنه نوع راق من السلاح، والقرية في أشد الحاجة إليه.. فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع؟ ولكن سكوت رجال السلمة، لا يعني سكوت نسائها، لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح إلحاحاً قاسياً، ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الأمر، استطعن أن يقنعن أنفسهن أن سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة ١٩٣٦ مدفعاً من هذا الطراز أبلى من خلفه بلاءً حسناً، ثم خبأه في الجبال إلى أن آن أوان استعماله من جديد.. ولكن التساؤل بقي متضمناً في أعمق أعماق سكان السلمة، لم يكن من اليسير أن يجمع الإنسان ثمن مدفع من

طراز الماشينغن.. إذن فمن أين أتى سعيد الحمضوني بهذا المدفع؟ نعم. من أين؟

المهم.. أن هذا المدفع الأسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس أهل السلمة، وهو يعني بالنسبة لهم أشياء كثيرة، أشياء كثيرة يعرفونها، وأشياء أكثر لا يعرفونها.. ولكنهم يشعرون بها، هكذا، في إبهام مطمئن.. إن كل كهل وكل شاب في السلمة، صار يربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود هذا المدفع، وصار يستمد من صوته المتتابع الثقيل، أثناء تجربته في كل أمسيتين، نوعاً من الشعور بالحماية..

وكما يرتبط الشيء بالآخر، إذا تلازما، ربط الناس صورة المدفع بوجه سعيد الحمضوني المربع، ولم تعد تجد من يفصل هذا عن ذاك في حديث الدفاع عن السلمة، إن سعيد الحمضوني أصبح الآن ضرورة مكملة.. بل أساسية، للمدفع، وعندما يتحدث الناس عن سعيد، كانوا يشعرون أنه أداة من أدوات المدفع المعقدة.. شيء كحبل الرصاص، كقائمتي المدفع.. كالماسورة، متماسك لا تنفصل أطرافه عن بعضها. بل وأكثر من ذلك، لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع. كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة، شعوراً يوحي بالمنعة: فهو دائم التفكير بالمدفع، دائم الاعتناء به، تكاد لا تراه إلا وهو

يدرب شباب القرية على استعماله، ويدلهم في نهاية التدريب على المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع، هذا المكان الذي سيصير – فيما بعد – معتاداً.

ومع مرور الأيام بدأ سعيد الحمضوني يتغير.. لقد تبدّل لونه عن ذي قبل. وبدا كأنه يضمر شيئاً فشيئاً، وأحسّ شباب السلمة أن سعيد الحمضوني صار يبدو أكبر من ذي قبل، وأنه صار يفقد هذه الحركة الحية في وجهه وفي صوته.. إنه صامت الآن، صامت إلى حد يخيل للإنسان معه أنه نسي كيف كان يتكلم الناس، وصار شيئاً مألوفاً أن يجده الناس منطلقاً إلى جنوب السلمة، حيث ركز المدفع، ليجلس وحيداً بقربه إلى العشية.

هذا الرجل الجبار.. الهادئ.. الثائر.. هل كان يعتقد إنسان أنه سيرتجف كذرة من القطن المندوف على قوس المنجد؟ لقد فتحوا عليه باب داره والصباح يوشك أن ينبلج، وتضاخمت أمامه كتلة سوداء، ضربت الأرض، وبرز منها صوت أحد رجاله، يدور كالدوامة، ليبتلع كل إحساس بالوجود:

– المدفع.. لقد أصابه العطب.. إن ماسورته تتحرك بغير ما توجيه.. اليهود يتقدمون.

وأحس سعيد الحمضوني بقوة جبارة تقتلع من جوفه شيئاً يعز

عليه أن يضيع منه، شيئاً كقلبه لا يستطيع أن يتابع وجوده إلا معه.. كان يشعر بكل هذا وهو منطلق عبر الحقول الباهتة النائمة في آخر الليل.. ووصل إلى حيث كان الرشاش يتكئ كالطفل الميت على الأغصان اليابسة، كل شيء ساكن، إلا طلقات البنادق الهزيلة، تحاول عبثاً الوقوف في وجه الهجوم.. أما المدفع.. أما جهنم..

وهزّ سعيد الحمضوني رأسه وكأنه يواسي نفسه بمصاب ابنه، ثم فكر أن لا بد من إجراء.. لا بد.. شيء قوي كالكلابة يجب أن يمسك الفوهة الهاربة إلى بطن المدفع.. شيء قوي..

– اسمع.. سأشد الماسورة إلى بطن المدفع بكفي. وحاول أن تطلق.. لا يوجد أية دقيقة لتضيع في الكلام.. دعنا نجرب.

– لكن..

– اطلق!

– سيرانا اليهود وأنت فوق الحفرة.

– اطلق!

– ستحرق كفّيك بلهب الرصاص..

– اطلق.. اطلق!

وبدأ المدفع يهدر بصوته المتتابع الثقيل، ومع صوته المحبوب، شعر سعيد الحمضوني بنفسيته التي تغذت طويلاً بالثورة والدم

والقتال في الجبال، شعر بأنها النهاية.. نهاية تاق إليها طويلاً وها هي ذي تتقدم إليه بتؤدة، كم هو بشع الموت.. وكم هو جميل أن يختار الإنسان القدر الذي يريد.. وسمع صوته من خلال دقات الرصاص:

– اسمع أريد ان أوصيك وصية هامة..

وعاد يصيخ إلى المدفع واستخلص من صوت الرصاص ثقة جديدة ليتابع وهو يحاول أن يمضع ألمه:

– قرب قرية أبو كبير، أبعد منها قليلاً، يوجد مستشفى للسل.. عرفته؟ حسناً! لي هناك مبلغ جيد من المال، قالوا لي.. أن أرجع لأقبضه بعد أن يفحصوا الدم.. أنا متأكد أنه... دم جيد.. في كل مرة يقولون أنهم يريدون أن يفحصوا الدم كأن دم الإنسان يتغير في خلال أسبوع ونصف.. اسمع.. إن ثمن المدفع لم يسدد كله.. ستجد اسم التاجر في داري.. هو من يافا. لقد دفعت قسماً كبيراً من ثمنه من تبرعاتكم. لقد أوشك ثمنه أن يتم.. هل تعرف أنهم يشترون الدم بمبلغ كبير؟ لو عشت شهرين فقط؟ شهرين آخرين لاستطعت أن أسدد كل ثمنه.. إنني أعطيهم دماً جيداً.. ثمنه جيد.. خذ حسن وحسين واذهب إلى ذلك المستشفى.. ألا تريد أن يبقى المدفع عندكم.. إن حسن وحسين.. ولدي.. يعرفان كيف يذهبان إلى

هناك.. لقد كانا يذهبان معي في كل مرة.. إن دماءنا جميعاً جيدة.. جيدة جداً.. القضية قضية الحليب الذي رضعناه. قضية.. أريد أن أقول لك شيئاً آخر.. إذا تراجع اليهود هذه المرة.. تكون آخر مرة يهجمون بها من هذه الناحية.. سيخافون.. فعليكم أن تنقلوا المدفع إلى الشمال.. لأن الهجوم التالي سيكون من هناك..

واشتد شعوره بالنار تلسع كفيه بقسوة.. وأحس إحساساً ملحاً أنه لو كان في صحته العادية لاستطاع أن يقاوم أحسن من الآن، وراوده شعور قاتم بالندم على أنه سلك في شراء المدفع ذلك السبيل، ولكنه أحس إحساساً دافقاً أن المدفع طرف آخر من الموضوع، طرف هام.. إن وجوده يحافظ على أهميته قبل أن يموت هو، وبعد أن يموت.. فأغمض عينيه، وحاول جاهداً أن يحرر نفسه من سجن ذاته كي ينسى ألمه.. لكنه لم يستطع.. فأسقط ركبته على الأرض في ثقل..

وعلى صوت الطلقات المتقطعة بانتظام وعنف.. أحس سعيد الحمضوني بأشياء كثيرة.. كأنها ملايين الأبر تدخل في شرايينه فتسلبه ما تبقى من دمه، ثم شعر بأطرافه جميعها تنكمش كأنها ورقة جافة في نهاية الصيف.. وبجهد شرس حاول أن يرفع رأسه ليشم الحياة، إلا إنه وجد نفسه فجأة في تنور من ذلك النوع الذي

يكثر.. في السلمة، والذي عاش إلى جواره فترات طويلة من صباه، وجد نفسه في ذلك التنور جنباً إلى جنب مع الأرغفة الساخنة تحمر تحت ألسنة اللهب، ورأى، بعينيه، فقاقيع العجين الملتهبة، تطير عن رغيف المرقوق وتلتصق على شفتيه، وشعر بيد قاسية تشد رأسه إلى أدنى.. إلى أدنى.. إلى أدنى.. فيسمع لفقرات رقبته صوتاً منتظماً ثقيلاً وهي تتكسر تحت ثقل رأسه.. وأحس أنه فعلاً لا يريد أن يموت، وأعطته الفكرة دفقة أخرى من الحياة.. فاكتشف أن صوت تكسر فقرات رقبته هو صوت الرصاص الذي ينطلق من المدفع الرشاش، وشعر بمواساة من نوع غريب، مواساة تشبه تلك التي يراها الوالد في ولد عاش بعد مصرع أخيه، فابتسم باطمئنان، وخرج من التنور لكنه شعر أنه لم يلمس الأرض بقدميه..

◆ ◆ ◆

وشيعته القرية كلها إلى مقره الأخير.. أو الأول.. سيان..

دمشق، ١٩٥٧/٨/١٢

دَربٌ إلى خائن

رأيناه أول مرة جالساً في واحدة من تلك العرائش المتناثرة على طول الطريق الممتد في الصحراء بين بغداد والمفرق.

إن المسافر في سيارة صغيرة، قادماً من الكويت، ومارًا بالبصرة وببغداد ومتجهاً عبر الصحراء الكبيرة إلى محطة الإتشفور في الأردن ومنها إلى عاصمة الأردن، أقول، إن المسافر في ذلك الطريق يستطيع أن يستريح في عرائش صغيرة بناها بعض رجال البدو بين مسافة وأخرى، يقدم فيها الشاي الأسود والكعك العتيق وابتسامة المضيف البدوي.. وفي واحدة من تلك العرائش قابلنا محمود – الذي لم يتيسر لي أن أعرف اسمه الأخير – لأول مرة..

كنت أشارك زميلاً لي في سيارته الصغيرة قادماً إلى دمشق، ولجأنا بعد مرور منتصف الليل إلى تلك العريشة، واستقبلتنا بضعة كلاب متوحشة بنباح طويل مبحوح خرج على إثره بدوي طويل يحمل في يده فانوساً صغيراً ورجانا أن نجلس على علية خشبية وأن

ننتظر الشاي..

كانت الصحراء تترامى في مواجهتنا طويلة صامتة يضيئها القمر ضياءً ناعماً خفيفاً.. وكانت ثمة أنسام باردة تمر برفق عبر العريشة، وتعطي الجو قداسة خاصة. لم أكن أحس برغبة في الكلام أو السماع، كنت أريد أن أنظر فقط.. ورغم ذلك فقد أحسست غبطة ما عندما سمعت صوتاً يأتي من العلية الخشبية المقابلة:

– لا ينقص هذا الجو إلا صوت فيروز..

لم أشك في أن المتكلم هو سائق سيارة الديزل الكبيرة الواقفة في محاذاة العريشة، ولاحظت عندما نظرت إليه أنه لا يختلف عن معظم سائقي الديزل الذين رأيتهم في العرائش السابقة والذين يعملون في نقل الخضار إلى الرياض أو الكويت.. كان جالساً على العلية رافعاً ركبته إلى ذقنه مطلاً من فوقها بهدوء إلى الصحراء الواسعة.. كان ضخماً، قوياً، يبدو تماسك لحمه من تحت قميصه الأزرق المتسخ بالشحم، كنت أستطيع أن أعرف، دون أن أرى، أن الشعر الخشن قد ملأ ذقنه وفوديه لأنه لم يحلق منذ يومين كاملين.. وكان زميله جالساً في ظله هو الآخر، كالشبح.. كانا ينظران إلى الصحراء.

ورغم ذلك، كنت أشعر أنني غير راغب في الحديث، ولكن

الصوت عاد يقول:

– فيروز.. إن لها صوتاً رائعاً.. قل لي يا أخ.. هل أنت من سورية.. إنني أعرف سورية.. إنها بلد جميلة..

وقلت أجامله فيما أنا أدير وجهي بالاتجاه المعاكس..

– نعم.. إنها جميلة.. هل أنت سائق هذه السيارة؟

– لا.. إنني المعاون.. أو إنني المسافر.. إنني أقول المعاون عندما نصل إلى نقطة من نقاط الحدود، وأقول المسافر عندما أكون حراً لأقول ما أشاء..

وعرفت لتوي أنني أمام إنسان غير عادي، من أولئك الذين يكثرون في هذه الأماكن الغريبة، وهيأت نفسي لسماع قصة عجيبة، ورغم كل هذا، لم أعطه الفرصة ليبدأ في ذلك..

– لماذا لا تشرب الشاي ساخناً؟.. إنك مسافر غير محترف.. اشربه، إنه يعطيك حرارة تكفيك لكي تصل إلى الإتشفور.. هل أنت ذاهب إلى هناك؟

وأحسست به يجرني للحديث فأجبت باقتضاب:

– نعم.

– أما أنا فلا.. إنني ذاهب إلى اللد.. هل سمعت عن اللد؟ لقد باعها الملك عبدالله لليهود.. نعم.. أنا ذاهب إلى اللّد.. ولكن لا.. إننا

نشترك في الطريق إلى المفرق ثم نفترق. أنا إلى اللد.. وأنتم..

قال زميلي وقد استوى في جلسته..

– إلى اللد؟

– أريد أن أذهب لكي أقتل إنساناً.. ثم لأعود إلى الكويت. سأقتله بمسدس «موزر» مدفون في المقبرة.. دفنته قبل أن أخرج، أقول لك الحقيقة.. لم أكن أفكر وأنا أدفنه أنني سأستعمله في يوم ما لغرض نبيل إلى هذا الحد..

وسألته أنا هذه المرة:

– من تريد أن تقتل؟

– أخي..

وصمت.. وعاد يسند ظهره، ووقف البدوي وقد كان على وشك أن يدخل العريشة واستدار ينظر إليه، وندت عن زميلي صيحة صغيرة مكتومة... وقال كليهما، زميلي والبدوي، في نفس واحد..

– أخوك؟

– نعم..

وسكت مرة أخرى.. ثم قال بهدوء:

– إنه خائن.. إنه يعمل لحساب اليهود. قالوا لنا ذلك، قلنا: يريد

أن يعيش.. قالوا: ألا يجد طريقاً آخر.. قلنا: هو حر.. أما الآن فالأمر يختلف تماماً..

– ماذا صنع؟

قبل عدة أسابيع، قدم وشاية إلى اليهود عن أولاد عمه، أنتم تعرفون أنهم هناك يقومون ببعض أعمال صغيرة.. لقد وشى.. فسجنوا.. وقررت يومها أن أذهب وأقتله.. ولكنني فكرت قليلاً، ثم عدلت..

– بماذا فكرت؟

وقبل أن يجيب سأله البدوي بصوت أجش وهو لا زال واقفاً على باب عريشته:

– لماذا لا يقتله أولاد عمه؟

– إنهم لا يعرفون أنه هو الخائن.. إن واحداً فقط يعرف.. أنا. . قلت لكم لقد فكرت قليلاً فعدلت.. هذا صحيح، إن أمه تحبه كثيراً، أنتم تعرفون كيف تحب العجوز أصغر أولادها بعد وفاة زوجها.. فخفت أن أقتله فيقتلها الحزن.. إنني أحب أمي.. ويجب أن نحترم هؤلاء العجائز.. على أي حال.. لقد حلت المشكلة على نحو غير متوقع.. لقد تدخل القدر لينهي المهزلة.. لقد ماتت أمي قبل أسبوع واحد.. صدقوني أنني فرحت بموتها أكثر مما حزنت.. إن الله، فوق،

يعرف كيف يتصرف..

وصمت مرة أخرى.. وأحسست برغبة في سماع البقية.. وركض البدوي خلف كلابه ورجمها بالحجارة طامعاً أن تكف عن النباح وعاد مسرعاً فوقف متكئاً على الباب.

– رصاصة.. وينتهي الخائن.. كل رجائي أن أصل إلى اللد قبل أن يمسكني اليهود.. إن التسلل من أصعب الأمور وأسهلها في آن واحد..

قال ذلك، ونهض متوجهاً إلى السيارة، تابعاً زميله الصامت. حتى إذا ما وصل إلى الباب.. استدار نحونا وقال بصوت عال:

– كنت أوشك أن أقدم «مترك لندن» قبل أن نخرج من فلسطين، ولكن الحرب منعتني من ذلك.. فالفرق بيني وبينكم أنكم تحملون هذه الورقة، هذه الشهادة، وبالتالي فأنتم تصرون على لبس المعاطف وأربطة العنق.. إلى اللقاء.. وصعد إلى السيارة، وهدر المحرك صاخباً وتابعنا بعيوننا الضوء الأحمر وهو يذوب في الظلام.. كان البدوي لا زال واقفاً على الباب..

فقال وكأنه ينتشل نفسه:

– عجيب!

وسألني رفيقي:

– لو فرضنا أنه وصل، فكيف سيرجع؟

– إن الذي يدخل يستطيع أن يخرج، إنها نوع من المقامرة.

وعاد يسأل:

– كيف يمكن أن يقتل شخص ما أخـاه؟. هل يستطيع أن يتحمل منظر دمه وهو يسيل؟

– ليس من الضروري أن ينظر إلى الدم بعد أن يقتل، المهم هو أن يبدأ في القتل..

– إنه مجرم..

– إنه قديس..

وقال زميلي هو يتوجه إلى سيارته تاركاً البدوي لوحده:

– إنني أعتقد أنه ثرثار كذاب.

◆ ◆ ◆

قابلناه مرة ثانية قرب حدود الأردن، واقفاً يتكلم مع زميله سائق السيارة.. وشجعني ترحيبه على سؤاله:

– هل ستعود إلى الكويت إذا نجحت الخطة؟

وتطلع إلي متعجباً وهو يسأل:

- إذا نجحت الخطة؟

فهززت برأسي وأنا أقول:

- نعم.. خطة التسلل إلى الأرض المحتلة..

فقال وهو يبتسم هازاً رأسه..

- أيها المثقف، ألم تسمع عما جرى هنا، في الأردن، إنني لا أستطيع أن أدخل إلى الأردن الآن.. لماذا؟ لأنني كنت فوضوياً أيام كان أبو حنيك يحكم الأردن.. إنهم يدرجون أسماء أولئك «الفوضويين» كلما أوحى أبو حنيك بخطة جديدة.. إن أبو حنيك هذه المرة يلبس ثوب صاحب الجلالة..

- إذن ماذا ستعمل؟

قال وهو يشير إلى الأفق:

- سأتسلل إلى الأردن أولاً..

دمشق، ١٩٥٧/٩/٩

البطل في الزنزانة

قرأت لك أخيراً مجموعة لا بأس بها من الأقاصيص المنشورة هنا وهناك، وسرني بالفعل أنك قد تخلصت إلى حد بعيد من ذلك الافتعال اللزج الذي يثقل طبيعة القصة، ويعرقل انسياب حوادثها. إن أصعب ما في كتابة القصة هو التخلص من ذلك الافتعال، لكنني، وأصدقك القول، لا أفهم تماماً ماهية هذا الذي يدعونه «افتعال»، فإن كان يقصد منه ضعف الأسلوب وتقصيره عن إظهار الحادثة بشكلها الطبيعي، فأنا موافق، أما إذا قصد منه أن الحادثة في القصة هي حادثة تعوزها الإمكانية والعفوية، أو أنها حادثة بسيطة إلى حد ليس لها فيه أية قيمة، فأنا لا أوافق، إذ إنني أعرف قصة حدثت حقيقة مع واحد من أصدقائي، وكلما فكرت في أن أكتبها، لمحت فيها، مقدماً، خطوطاً ثخينة من هذا «الافتعال» تحدد بعض جوانب حوادثها.. لماذا؟ إنني في الحقيقة لا أدري، أو، ولأعترف بذلك، أن حوادث القصة ذاتها ليس فيها أشياء كثيرة تحفظ عليها بنيانها

القصصي. وأخاف أن أزيد على أحداثها كي أخلص من الضعف والافتعال، فأقع في الكذب.

فأنا، على هذا، أحب أن أكتبها لك كما هي، احتراماً للبطل وللحادثة، وكما حدثت قبل عدة أشهر دون أن أزيد فيها أو أن أنقص.. وعليك أنت أن تجرب فيها القواعد التي قلتها عن كتابة القصة، ولكي تكتب عن هذه الحادثة نفسها قصة ناجحة يقول عنها النقاد إنها «مكتملة البناء الفني»، فكيف ستتصرف يا ترى؟ وهل تجيز لنفسك أن تغير الحوادث التي وقعت، أو تضيف عليها حوادث جديدة كي تنسجم مع ما يسمونه «البنيان الفني للقصة»؟ وإذا أجزت لنفسك ذلك، فهل تعتقد أنك تكون في مستوى القضية التي تعذب البطل من أجلها؟

◆ ◆ ◆

إن صديقي - بطل القصة - ولنسمه رياضاً، يعيش قضية تعكس نفسها على كافة جوانب حياته، إنه يعيش قضية الأمة العربية، ويبذل جهداً هائلاً لكي يرتفع بنفسه إلى المستوى الإيجابي المنتج لهذه القضية.. إن رياض قد حاز إعجاب الجميع وتقديرهم،

رغم أن قسماً من هذا «الجميع» عندما تعرف إلى رياض قال عنه إنه إنسان يحب التظاهر، وإنه في باطنه يريد أن ينطلق إلى أقرب ملهى.. كي يلعب مع العصافير – حسب تعبيرهم – ولكن رياضاً ما لبث أن فرض نفسه بتشامخ ارتباطه مع القضية الكبيرة..

لم يكن رياض – إذن – مزيفاً بهذا الارتباط، ربما كان ارتباطه هذا أوضح ما في نفسه من أصالة.. كان يقف وقته كله على تغذية نفسه بفهم أوسع، وأنصع، لهذه القضية.. إنني لا أبالغ، بل أعطيك إنساناً أعرفه كما يعرف الإنسان ألصق الأشياء به..

لقد سافر رياض إلى الأردن، بعد انتكاسة نيسان الأخيرة، فإن هنالك أشياء كثيرة يستطيع أن يؤديها بإتقان، واستطاع أن يجد غرفة متواضعة منعزلة في دار تسكنها امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، مع زوجها.. هناك سكن رياض، كان يمضي أوقاتاً طويلة في غرفته، يتم أعماله الخاصة، غير مهمل البتة، القيام بالواجبات الصغيرة التي تحتمها المجاملات مع أصحاب الدار.. لقد كان يستقبلهما بغرفته، ويسهر معهما، حتى إذا ما قاما إلى غرفتهما دأب هو على عمله حتى الصباح..

وكان في عمله ذاك، أوضح مثال على الإنسان الذي يتغذى بالنضال الصامت. كان قاسياً على نفسه، غير متهاون أبداً في

مطالبتها بالواجبات.. كان رفاقه يحترمونه، لقد كان قوياً، وقد فرض هذا الشعور على جميع من تعاون معه، فرضه إلى حد جعل بعضهم يتساءل، هل يمكن أن يكون لهذا الإنسان – رياض – جوانب أخرى غير قوته، في ذاته؟

وأتى الجواب في لحظة عابرة.. رأوه مرة يبكي، كان ذلك ليلة نزل فيها بسيارة هزيلة مع بعض أصحابه، حاملاً رزماً من المناشير، وفي الطريق، لاحظ السائق أن ثمة سيارة تتبعهم، فراوده خوف مشحون بالرغبة في التحدي، ولكنه اضطر إلى أن يبدل اتجاه الطريق.. لم يلحظ هذه الحركة إلا رياض.. بينما استمر واحد من زملائه يلقي شعراً، لشاعر من إقليم مصر بصوت خفيض نصف مبحوح:

.. لاجئة، تبكي أيام الحب..

لما كانت يافا.. يافا.

وأخيراً.. ما بعدك يا يافا؟

كم سنة ونصير حكاية؟

ويقول العلماء. .

العرب انقرضوا!

وفجأة نظر الجميع إلى رياض، كانت اللحظة تحتويهم بعنف

وتجهم، إن ثمة لحظات تعطي الإنسان دفقات من المشاعر القاسية، البعيدة، العجيبة.. تلح على رأسه إلحاحاً ممضاً.. لقد كانت تلك اللحظة من هذا النوع، إن رياضاً قد خضع حتماً لتلك الدفقات العجيبة.. إن أشياء كثيرة، تلح عليه، لا شك، بحدة وصلابة. فبكى!

شيء مؤلم أن تجد إنساناً قوياً يبكي.. أليس كذلك؟

❖ ❖ ❖

قلنا إن رياضاً عاش في الأردن منذ وصلها، وهو يعمل ليلاً نهاراً، لقد توطدت صداقته مع أصحاب الدار، فصاروا يحبونه حباً جماً، ليس هذا فحسب بل كانوا يقدمون له عشاءه، في بعض الأمسيات..

لقد كانت (أم...) صاحبة الدار تأتي إلى غرفته كل ليلة تقريباً مع زوجها، فتجلس على طرف السرير، وتتحدث عن الأخبار بينما كان رياض يجلس على كرسيه، خلف طاولة صغيرة.

وفي مرة، رفعت (أم...) جريدة موضوعة على السرير أمام عينيها، ولاحظ رياض أن الجريدة مقلوبة، وقبل أن يتكلم، رمت (أم...) الجريدة جانباً وهي تقول:

– الله يلعن أيام زمان.. على كل حال، أنا تزوجت، وصار عندي

أولاد.. ولم يبقَ في العمر قدر ما مضى..

وهز رياض رأسه وهو يقول:

– إنك يا (أم...) من الناس الذين قيل عنهم إنهم متعلمون رغم إنهم لا يعرفون القراءة..

وضحكت (أم...) ونهضت وهي تتمنى له ليلة طيبة.



حتى إذا كان ذات مساء.. وقد عاد رياض إلى داره مرهقاً، استقبلته الشرطة على الباب، وشدوا الحديد على رسغيه وقادوه – دونما كلمة – إلى المخفر.. وذهب رياض إلى هناك هادئاً، وهناك قالوا له إنه يتآمر على العرش، ولكنه نفى ذلك بهدوء.. إنه كان على يقين كبير أن أحداً لن يجد ضده إثباتاً واحداً.. لقد كان حريصاً في إخفاء أوراقه، قديراً في التخلص منها في الوقت الملائم، إن الشتائم لم تجدِ، لا هي ولا السياط.. لقد بقي رياض صامداً في كل لحظة.

ولكن الأمور تجري بقسوة أشد، لقد سجن رياض في زنزانة منفردة، وسلكوا في سحب اعترافاته طريقاً وحشياً مريعاً.. كان يعرّض لتيار كهربائي في كل يوم.. كان يجلد، ويعذب، ويرمى في

زنزانته وحيداً مع جراحه، ولكنه صمد ببطولة صامتة، فلقد ذوت ابتساماته تحت صفع السياط وصفع الشتائم، وبات لا يحس إلا التمزق.

ثم حمل إلى غرفة الضابط المسؤول وأعيدت عليه مجموعة الأسئلة التقليدية، وأنكر رياض كما اعتاد أن يفعل، قدم له الضابط – دون أن يغير تعابير وجهه المبتسم بجذل وحبور – مصنفاً صغيراً وطلب منه أن يفتحه.

لقد رأى رياض في المصنف مجموعة من الأوراق، ما لبث أن عرف فيها أوراقاً كان قد كتبها في غرفته تلك، منشورات، وبعضها الآخر رسائل إلى هاربين، وأوراق أخرى، لقد أحس رياض لا شك، قسوة المفاجأة – وعليك أنت أن تبرز هذه المفاجأة عندما تكتب القصة – ولكنه تشبث بالنقطة الأخيرة التي بقيت لصموده، لقد قال إن هذا الخط ليس خطه، وأنه، على هذا، لا يتعرف على الأوراق..

نعم يا رياض، إنه ليس خطك ولكن أيعدم الخائن وسيلة ليلوث نفسه أكثر بالوحل والحماء؟ إن عندهم مجموعة من الإثباتات الصغيرة لا بد وأنهم سيبرزونها في الوقت الملائم..

وبدأت الخطوط تنجلي شيئاً فشيئاً، إن صاحبة الدار هي

صاحبة الوشاية، وهي التي كانت تنسخ أوراقه أثناء خروجه في الصباح، وهي التي قدمت تقريراً عنه، إن المرأة الشريرة إذن تعرف القراءة والكتابة، لقد حطمت المفاجأة كل قلعة للأمل في صدر رياض، ولكنه احتفظ لنفسه بمواساة أخيرة. إن المرأة الكاذبة لم تبدأ عملها منذ زمن بعيد وأنها نسخت جهود أيام قليلة فقط.

ويتذكر رياض المرأة، ويشعر بالمرارة، لقد خدعته، ولكن ما مصلحتها من هذا كله؟ – ويأتي الجواب من زميل في السجن، إنها زوجة منتسب لحزب معين – سأوافيك باسمه إن قررت أن تكتب القصة فعلاً – وهو حزب معروف بتعاونه مع الفئة الحاكمة هناك، وهي – أي المرأة – أم لابن يعمل فيه.

ويقول له الضابط:

– ما رأيك؟

ويقول رياض:

– إنكم أذناب صغيرة في بالوعة القاذورات المنتنة، فليسقط العرش، ولتسقط الوزارة، ولتسقط أنت.

ويصفع بالسوط ... ويلقى في السجن.

هذه هي القصة وهي بسيطة في حوادثها، عادية إلى حد بعيد، إنني لا أريد أن أكتبها كقصة خوف أن ألجأ إلى الحواشي،

فأقع في الكذب، أو في شيء آخر لا أعرفه، ولا أحبه، والحادثة كما كتبتها، هي الحادثة التي وقعت فعلاً، قد تبدو بعض أحداثها غريبة أو مدسوسة وهذا سيزعج بعضهم، أو إنما ستبدو عادية جداً، وهذا سيزعجهم أكثر.

خذ مثلاً عندما يتكشف أن صاحبة الدار هي امرأة تعمل لحساب الفئة الحاكمة، وإنها منتسبة إلى ذلك الحزب، سيقول بعضهم «إنك دسست هذا المقطع لغاية في نفسك»، ولكن الحقيقة التي وقعت ترفض هذا التكذيب، وإذا لم أذكر هذه الحقيقة، فماذا أقول؟ أليس في ذكرها فائدة لطائفة من الناس؟ إذن؟

أتريد مثالاً آخر؟ يقولون لك إن كذب المرأة، صاحبة الدار، وإن كلماته الأخيرة عندما صفعه الإثبات وحوادث تعذيبه، هي أمور غير واقعية – وفيها شعار ما – ولكن لماذا ننفي الحقيقة ونفتش في أذهاننا عن حادثة يقول عنها النقاد إنها ممكنة الوقوع، أليس في الذي وقع ممكن أوضح؟

أريد من كل الذي كتبت أن أسأل – أليس من حق هذا الإنسان الطيب النبيل أن يحتفظ لنفسه بحوادثه الخاصة، تلك التي بذل فيها جانباً من إنسانيته؟ أليس من حقه أن يقدَم للناس كما هو، وأن يتصرف في القصة كما تصرف حقيقة؟ إذن لماذا نحاول أن نحكي

عنه قصة لم تحدث معه؟ ألنخدم فن القصة؟ قل لي لماذا؟

ولكنني لا بد لي أن أوافقك أن مشاعر القارئ يجب أن تحترم أيضاً.. فأنت– ككاتب يهمك جداً، وربما أولاً، رضا هذا القارئ – تطالب بنهاية ما لهذا المقطع من حياة البطل، نهاية تخدم فن القصة وترضي القارئ، الذي يجلس حيث لا أدري والذي يريد أن يدغدغ مشاعره قليلاً، إذن، فلنجد نهاية ما، إن رياض ملقى في زنزانته الآن، على حشية قش وبراغيث، محروم من التدخين، محروم من القراءة، محروم من التفكير، الخيوط الحمراء التي حفرتها في جسده الأسمر سياط المجانين محشوة بالملح، إن أصابعه ترتجف من التعب، لا من الخوف.. تعال نفتش عن مخرج، تعال نخط له نهاية سعيدة على صفحة ورقة، كي يتمتع بها إنسان حر طليق.. تعال نعمل كل هذا لنتم القصة.. كي نخدم فن الأقصوصة القصيرة.

لقد قرأت القصة على صاحبين من أصحابي، وطالبتهما بنهاية تسر القارئ، أو على الأقل ترضيه.. فاقترح أحدهما أن يهرب رياض من السجن بكيفية ما، ولكنه طالب بأن تكون عنيفة، وأن يذهب لتوه إلى الدار فيقابل (أم...) وليقول لها إن وشايتها قد عذبت إنساناً، وآلمته، وأرهقته.. ومن ثم، يتركها لتأنيب ضميرها، الذي لا بد له – كما أكد صاحبي – أن يستيقظ دفعة واحدة.

واقترح الآخر – وهو من قراء دوماس – بل يجب أن تجري الحوادث الآن على نحو مغاير. إن المرأة هذه، تشعر فجأة أنها تحب رياض حباً عنيفاً، ألم تقل إنها في الثلاثين؟ حسن جداً، إن سبب هذا الحب هو أن رجولة رياض، أبرزت تفاهة الزوج، هذه المرأة، تذهب إلى السجن لتقابل رياضاً، ولتقدم له الطعام والدخان، ولكنه يرفض، فتصر ويصر هو على رفضه، وتشعر فجأة بجريمتها، فتقرر قراراً عنيفاً...

إنني لا أوافق على هذه الثرثرة، وأدرك كم أنت مشمئز الآن، لكن أرجو أن تسمع رأيي في الموضوع، إنني متأكد من نهاية هذه القصة، تأكدي من أن الشمس ستغرب اليوم على طرف الخليج، مثل كل يوم، أن الوضع الهزيل القائم سيتهاوى لا شك، وسيخرج رياض من السجن مع زملائه الأحرار، وسينغمس مرة أخرى في مشاغل القضية التي آمن بها، وتعذب من أجلها.

أما عن (أم...)، فستضيع بين أكوام التجارب الصغيرة التي مرت بها..

ماذا ترى أنت؟..

الكويت، ١٩٥٨/٦/٩

قرارٌ موجَز

كان من هواة الفلسفة.. والحياة بالنسبة له هي مجرد نظرية..

لقد بدأ يتفلسف منذ كان طفلاً، ويذكر تماماً كيف أوجد لنفسه سؤالاً شغله طيلة أسبوع كامل، واعتبره مشكلة جديرة بالتفكير العميق: لماذا يلبس الإنسان القبعة في رأسه والحذاء في قدمه؟ لماذا لا يضع على رأسه حذاء ويلبس قبعة في قدمه؟ لماذا؟ وفكر مرة أخرى بسؤال جديد: لماذا لا يسير الإنسان على يديه ورجليه شأن سائر الحيوانات.. ألا يكون مسيره ذاك مدعاة لراحة أكثر؟

إلا إن مستوى فلسفته ارتفع مع مسير الزمن. وتوصل مؤخراً إلى قرار موجز: طالما أن الإنسان دفع ليعيش دون أن يؤخذ رأيه بذلك، فلماذا لا يختار هو وحده نهايته. ومن هذا القرار الموجز توصل إلى قرار أكثر إيجازاً: الموت هو خلاصة الحياة.

وهكذا، توصل إلى استقرار، دعاه بنهاية المطاف.. وأخذ ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها أن يشرع باختيار طريقة مشرفة لميتة ما..

إذن، فإن من يدعي أن عبد الجبار دفع دفعاً ليشترك في ثورة.. لا يعرف الحقيقة مطلقاً.. فهو قد اختار بنفسه أن يذهب لمركز التطوع، وأن يقف أمام طاولة الضابط ويقول بصوت ثابت:

- أريد بارودة لأستطيع أن أشترك بالثورة..

وسرعان ما اكتشف أن قضية البارودة ليست شيئاً سهلاً بالمرة.. وأن عليه هو أن يصطاد بارودة ما بالكيفية التي يريد.. ومن ثم يستطيع أن يشترك بالثورة..

- ولكنني قد أموت قبل أن أحصل على بارودة..

هكذا قال حانقاً، ولكنه ما لبث أن سكت وهو يسمع جواباً غريباً، ولكنه صحيح تقريباً:

- وهل أتيت إلى هنا كي تستمتع بصيفية لطيفة.. ثم لتعود إلى دارك؟

هنا، فكر أن فلسفته تقتضي تعديلاً طفيفاً.. إذ إنه ربما مات قبل أن يحصل على بارودة، ولم تنقض فترة طويلة جداً كي يتوصل لقرار موجز جديد: ليس المهم أن يموت الإنسان، لأن يحقق فكرته النبيلة.. بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت..

وهكذا استطاع عبد الجبار أن يستحصل على بارودة جديدة تقريباً، ولم تكلفه جهداً بالشكل الذي تصور أو بالشكل الذي أعد،

إذ إنه كان يتجول خارج «...» بعد معركة حدثت في الصباح، فوجد جندياً ميتاً، «والميت لا يحتاج لبارودة»، هكذا قال لنفسه وهو يقلب الجثة بحثاً عن بارودة فرنسية ذات فوهة مدببة.

وبين رفاق المتراس عرف عبد الجبار «بالفيلسوف»، ووجد المناضلون في فلسفته منطقاً صالحاً لتبرير الأمور التي تحدث.. كان معظم الثوار من الشباب، وكان يسره أنه يكبرهم قليلاً، وأنه يستطيع أن يجمعهم بعد كل معركة ليدرّسهم قراره الموجز الجديد بشأن الموت.

وبعد كل قتيل، كانت الفلسفة تتطور وتتغير.. ففي ليلة مظلمة مات فلاح أمي.. وقبل أن يسقط فوق المتراس شتم «...» ورجال «...».. وفكر عبد الجبار بكلمة تصلح لتأبين الشهيد، فإذا بالكلمة تصبح قراره الموجز الجديد: إن الفكرة النبيلة لا تحتاج غالباً للفهم.. بل تحتاج للإحساس! وبعد ليلة واحدة مات شاب كان قد خرج من المتراس وهجم بالسكين على جندي كان يزحف قرب الجدار، وأطلقت النار عليه وهو في طريق عودته إلى المتراس.. وقال عبد الجبار: إن الشجاعة هي مقياس الإخلاص..

وكان عبد الجبار بالذات شجاعاً.. فلقد طلب منه الضابط، وكان قد توصل أخيراً إلى إيجاد بذلة عسكرية ملائمة، أن يذهب للميناء

كي يرى ماذا يجري هناك، وقال له إن منظر وجهه الهادئ الحزين لا يثير الريبة في قلوب الخائفين..

وسار عبد الجبار في الشوارع بلا سلاح، ووصل للميناء، وتجول ما شاء له التجول، ثم قفل عائداً إلى متراسه..

إن الأمور تجري عكس ما يفترض المرء.. فلقد عرفه واحد ممن اشتركوا مرة في الهجوم.. وقبض عليه.. وساقه إلى حيث قال له ضابط خائف بعد أن صفعه:

– إنك ثائر..

– نعم..

– ملعون..

– كلا!

ولم ينسَ عبد الجبار وهو تحت الضرب الذي لا يرحم أن يضع قراراً موجزاً جديداً: إن ضرب السجين هو تعبير مغرور عن الخوف..

وشعر، إثر ذلك القرار، بشيء من الارتياح..



ولكن الأمور جرت، من ثم، على نحو مغاير.

فلقد توصل الضابط أخيراً إلى فكرة اعتبرها، بينه وبين أعوانه

المخلصين، فكرة ذكية.. بينما عدها عبد الجبار تصرفاً مغروراً آخر ينتج في العادة عن الخوف..

قال له الضابط:

– ستسير أمامنا إلى متراسكم الملعون... وستعلن لرفاقك المجانين أنك أحضرت معك عدداً جديداً من الثوار... ثم سيكمل جنودي بقية القصة...

– وأنا؟

– ستعيش معززاً مكرماً.. أو ستموت كالكلب إن حاولت خيانتنا..

وقال عبد الجبار في ذات نفسه: إن الخيانة في حد ذاتها ميتة حقيرة.

وأمام صفين من الجنود سار عبد الجبار مرفوع الجبين، وفوهة مدفع رشاش تنخر في خاصرته.. وقبل أن يصل إلى المتراس بقليل سمع صوت الضابط المبحوح يفح في الظلام:

– هيا..

لم يكن عبد الجبار خائفاً إذ إن رفاق المتراس قالوا إن صوته كان ثابتاً قوياً عندما سمعوه يصيح:

–.. لقد أحضرت لكم خمسين جندياً.



لم يكن عبد الجبار قد مات، بعد، عندما وصل رفاقه إليه وهو ملقى بين جثث الجنود.. وبصعوبة جمة سمع أحدهم صوته يملي قراره الموجز الأخير:

–ليس المهم أن يموت أحدنا.. المهم أن تستمروا..

ثم مات.

دمشق، ١٩٥٨/٧/٢١

يدٌ في القبر

صحوت باكراً جداً ذلك اليوم، وكنت أسمع صوت أبي يسبّح مستعداً للصلاة، ثم مر من جانبي:

– عيونك متعبة.. ماذا حدث، ألم تنم جيداً الليلة؟

هززت رأسي، ودورت الصابونة في كفي، وأخذت أحدق إلى وجهي في المرآة المقشورة من أطرافها دون أن أرد على أسئلة والدي... ومن غير أن ألفت رأسي، عرفت أنه وضع المنشفة حول عنقه واستبدل نعاله، وأخذ يتثاءب شاداً ذراعيه ما وسعه ذلك.. مسحت وجهي بالصابون، وسمعت صوت أختي تسأل والدي:

– ماذا حدث؟

– لا شيء.. وجه أخيك كالعصفر، إنه لم ينم الليلة حتماً. هل تعرفين متى عاد أمس؟

– نعم أعرف، لم يعد متأخراً.

– أنت تكذبين، دائماً تكذبين.. حينما يتعلق الأمر بنبيل.

بدأت أغسل وجهي بالماء، ورغم أن الحديث كان ينذر بعاصفة كريهة، إلا إنني كنت أحس نفسي خارج كل شيء، وسمعت صوت أختي:

– قلت لك إنه عاد مبكراً هذه الليلة.. أنت لا تريد أن تصدق. هل ستشرب قهوتك؟

– لا قهوة، ولا سم.. هل يستطيع أن يقول لي لماذا وجهه أصفر إذا كان نام مبكراً؟

نشفت وجهي، واستدرت فواجهته، كنت أعرف أنه يريد سبباً ليثور. هكذا يبدو في كل صباح، إنه لا يفعل شيئاً سوى أن يفتش – طوال ما قبل الفطور – عن سبب يلقي عليه ثقل غضبه، وكنت أنا اليوم محاولته الأولى.. حدق بي ثم رجفت شفتاه وهو يكرر:

– إذا نمت باكراً يا بك.. لماذا يصفر وجهك هكذا؟

درت حوله، وحينما أصبحت كتفي إلى جانب كتفه قلت بهدوء:

– اصفرار الوجه له عدة أسباب، ربما بسبب دود في المعدة، أو بسبب عشاء ثقيل، أو بسبب الإكثار من الدخان، وهنالك أسباب أكثر خطورة: أنيميا مثلاً، أو سل، أو بداية شلل نصفي.

لم يحدث ما توقعته، فوالدي لم يثر إطلاقاً، بل رمقني بنظرة

جانبية معجبة.. ربما تذكر أنه صرف علي طوال أكثر من عشر سنوات حتى استطعت أن أدخل كلية الطب، وهاأنذا أجيبه بكل وقار أجوبة علمية. فأدخل هذا كله السرور إلى قلبه.. ولكنه لم يشأ أن يتراجع بسهولة:

– لقد صحوت باكراً اليوم... أذّنت الفجر إذن؟

كنت قد وصلت غرفتي فألقيت بالمنشفة فوق السرير، ودون أن أستدير لمواجهة والدي وشقيقتي الواقفين في الباب، جاوبت بهدوء:

– صحوت باكراً من أجل أن أسرق قبراً..

– تسرق ماذا؟

– أسرق قبراً!

استدرت، فواجهته راجفاً:

– أسرق قبراً.. نعم، هل هذا شيء عجيب؟ يلزمنا في الكلية هيكل عظمي.. ولقد كلفوني بإحضاره أنا وسهيل..

كان والدي ما يزال غير قادر على أن يدرك الصورة تماماً، وبقي واقفاً هناك يردد دون أن يعي:

– تسرق قبراً؟

– نعم أسرق قبراً.. هيكلاً عظمياً لأي رجل مات منذ عشرين

سنة أريد ان أدرسه.

أغلقت شقيقتي الباب بيني وبينه، وتركتني وحيداً، ولما لم أسمع صوتاً خارج الباب، استبدلت ملابسي، وكنت قد جهزت الكيس والرفش، وكان على سهيل أن يحضر معولاً صغيراً. انحنيت لأجمع أشيائي، ولكن أختي فتحت الباب قبل أن أنهض، ونهرتني بحب:

– لماذا أثرته يا نبيل؟ أنت على غير مزاج هذا الصباح، لماذا كذبت عليه؟

– أنا لم أكذب.. أريد أن أسرق قبراً.

كان والدي قد لحق بها، وأطل من فوق كتفها، ولاحظت أنه كان يرتجف، وأخذ يصيح:

– لعن الله الساعة التي أدخلتك فيها كلية الطب، تريد أن تسرق جثة؟ يا لص، يا قليل الدين، يا فاسق.. ألم تقرأ ما قال الله في..

– قرأت، قرأت كل ما قاله الله، ولكن الله ليس ضد كلية الطب.. مطلوب مني هيكل عظمي كما كان يطلب منك الشيخ «جزء عمّ»!

حدق بي مستنكراً أن أتدخل في ماضيه بهذا الهزء، ثم ما لبث أن وجد سؤالاً غاضباً:

– هل سيسرق كل طلاب كلية الطب قبور الناس هذا الصباح؟ لن تتركوا جثة في المقابر! قل لي هل سيسرق كل الطلاب قبور الناس؟

ألقيت الرفش في الكيس، وفتلته حول معصمي ثم اقتربت منه:

– كلا! ثمن الهيكل العظمي ٧٥ ليرة، هل معك ٧٥ ليرة؟ لذلك أريد أنا وسهيل أن نسرق.. لأنك لا تستطيع أن تعطيني ٧٥ ليرة، ولأن عمه لا يستطيع أن يعطيه ٧٥ ليرة.

أطبقت شفتي، ونظرت إليه مغضباً، كان يحدق إلي بعجز كامل، فرفعت الكيس في وجهه:

– والآن.. دعني أذهب قبل أن تشرق الشمس وتفضحنا.

انزاح عن طريقي مشدوهاً دون أن يقتلع عينيه عن وجهي.. وكان فمه مفتوحاً دون أن يقدر على نطق كلمة فيما اجتزته أنا في طريقي إلى الباب..

كان سهيل ينتظرني قرب المنعطف.. وكان يبدو مع ضوء آخر الليل شبحاً أسود يرابط في الركن كي يخوف طفلاً شقياً.

– هذا أنت؟

همس عبر الظلمة الكئيبة، ثم شبك ذراعه في ذراعي، ورأيت دون أن أنظر إلى وجهه أنه كان خائفاً مثلي.. مشينا قليلاً، ثم وقف:

– لم يعطك ٧٥ ليرة.. ها؟

سألني كمن يريد أن يقول بأنه هو الآخر لم يستطع أن يحصل على الـ ٧٥ ليرة.. رفعت رأسي نافياً.. ثم شرحت الأمر.

– لقد تركت كل شيء حتى الصباح.. ويبدو أن المفاجأة منعته حتى من أن يفكر بالأمر.. وهكذا خرجت، كنت أتوقع أن يصيح بي قبل أن أخرج فيعطيني الـ ٧٥ ليرة، ولكنه بقي واقفاً كالمشدوه.. ماذا حدث معك أنت؟

هز سهيل رأسه ثم قال:

– حسب عمي أني أريد أن أضحك عليه بـ ٧٥ ليرة.. ولكن حينما أكدت له الأمر قال لي أنه مستعد لأن يدفع تكاليف الأحياء وليس ثمن الأموات.. ثم قال لي إني شاب، وشجاع فما الذي يمنعني من سرقة قبر وتوفير ٧٥ ليرة؟

مشينا برهة، ثم انعطفنا في الشارع الذي يؤدي إلى خارج المدينة.. وسمعت صوته:

– إذن هكذا؟

– إذن ماذا؟

سوف نسرق قبراً! لقد فشلت محاولات التسول! أبوك يبيع هيكله العظمي نفسه بأقل من ٧٥ ليرة.. أما عمي فيبيعه بفطور

واحد.. لا فائدة سوف نسرق قبراً..

وقفت وأمسكت به من كتفه:

– لا تقل إنك خائف؟ إذا كنت خائفاً، ارجع وسأذهب وحدي..

– أنا خائف؟ ها! أنا لست خائفاً.. ولكن لا يعجبني أن أمشي في آخر الليل لأسرق جثة.. أترى منظرك كيف تمشي لتسرق الأموات؟

كان خائفاً، هذا أمر لا شك فيه.. خائفاً أكثر مني.. سرنا مطرقين، كانت ثمة مقبرة خارج المدينة، مقبرة قديمة ذات قبور واطئة من طين بني.. لم تكن مسورة، ولم يكن فيها، عادة، حارس ما.. كانت مقبرة من ذلك الطراز الذي يوجد في مكان بعيد، بلا مبرر، كبقايا معركة قديمة بين غرباء جاؤوا من بعيد، ثم ماتوا، دون أن يعنى أحد بدفنهم في مكان ما.

كان لخطواتنا وقع جنائزي.. وحينما اقتربنا من المقبرة شعرت بصدري يهتز تحت وطأة ضربات عنيفة.. وخيل إلي أن شيئاً ما، يجلس كشبح فوق كتفي.. لم أحاول أن أنظر إلى سهيل خوف أن يعتقد أني خائف، وخيل إلي أني أسمع صفير لهاثه وهو يخطو، إلى جانبي، بثقل وصمت.

– ها نحن ذا..

قلتها بعد أن جمعت لها كل طاقتي، ونقلت الكيس من كتف إلى أخرى ثم وقفت:

– علينا أن نختار قبراً جيداً.

لم يجبني.. ومن بعيد كان ضوء كريه ينبعث بهدوء فوق قمة الجبل.. وكان الشيء الثقيل ما زال فوق كتفي، وكان صدري يهتز بعنف.. التفت إلى سهيل، كان ينظر أمامه بهدوء:

– اسمع يا سهيل، إذا كنت خائفاً.. هيا بنا لنرجع.

نظر إلي برهة، ثم سبقني صاعداً الارتفاع البسيط باتجاه المقبرة وأخذ، وهو يلهث صاعداً، يحدثني:

– أنا خائف؟ إن شئت ارجع أنت.. أما أنا فسوف أكمل، ما رأيك بهذا القبر؟ إنه يبدو متماسكاً، وقديماً، وكبيراً، ألست ترى أنه مناسب؟

– لم أكن أتوقع من سهيل أن يكون شجاعاً بهذا الشكل، وفاجأني حديثه حتى إني رغبت في أن أبرهن له، أنا الآخر، شجاعة مماثلة:

– هذا القبر؟ أوه.. يخيل إلي أنه قبر ثور، ولكن لا بأس طالما أنه وافق مزاجك.

شعرت بالخوف مباشرة بعد أن أتممت جملتي، واكتشفت

فجأة أن سهيلاً كان خائفاً هو الآخر، وأنه يحدق إلي غير مصدق مطلقاً أن أمسّ الميت بهذا الشكل، وكنت أنا أحاول جاهداً إلقاء الكيس على الأرض وإخراج الرفش، ولكني كنت أحس بأن الكيس أثقل من أن يتحرك، وبأن ذراعي مخدرة ومفرغة.. وسمعت صوت سهيل يهمس لنفسه:

– ٧٥ ليرة! ٧٥ ليرة فقط.. يا سلام!

ورأيته يلقي بمعوله الصغير على الأرض، ثم يخلع سترته بعصبية ويلتفت إلي:

– لا تقف كالأخرق.. دعنا نبدأ قبل أن تضيء أكثر... لا تقل لي إنك خائف؟ أنت صاحب الفكرة؟

ألقيت بالكيس إلى الأرض، وكان سهيل قد بدأ يعمل بعنف وسرعة، فهدم كوم الطين، واتكأ على المعول، بينما أزحت أنا التراب، وشعر كلانا بالدم يتدفق من جديد..

– بقيت البلاطة.. ما رأيك؟ نزحزحها؟

نظرت إليه وهو يلهث، وكان يبدو في ضوء الشروق شيئاً أسطورياً.. «أوشكنا أن نصل» قلت ذلك لنفسي فيما بذلت جهداً لا يبدو طبيعياً، كان واضحاً لي أن سهيلاً يطمئن إلى شجاعتي.. بينما كان علي أن أكسب سمعتي في الكلية حينما يروي سهيل الحادثة

غداً، لمست البلاطة بأصابعي، ثم رفعت رأسي لسهيل:

- رأيي أننا لن نستطيع زحزحتها.. دعنا نثقبها.

- ولكننا قد نكسر شيئاً من الهيكل.

- كلا.. إنهم يبعدون الصخرة عن الجثة عادة حينما يدفنونها.. ألم ترَ في عمرك كله حادثة دفن؟

رفع معوله إلى فوق، وأجاب بإيجاز:

- كلا.

أخذت المعول منه حينما تعب، ثم عاد فأخذه مني.. كنا نعمل بسرعة خوف أن تبدأ قوافل الفلاحين بالقدوم إلى المدينة، وكان الضوء قد اشتد، رمادياً بارداً كريهاً، وصار من السهل على الواحد منا أن يكتشف ما في وجه رفيقه، لذلك تشاغل كلانا بالعمل، كيفما اتفق.

ندت عن سهيل، فجأة، صيحة صغيرة، وكان رأس المعول قد فتح ثغرة صغيرة سوداء في البلاطة وانحشر داخلها.. رفعنا المعول سوية، وحينما تلاقت كفانا رفع رأسه ونظر إلي، فابتسمت، وأخذت أوسع الثقب فيما كنت أشعر أنه يحدق إلي، خلفي وهو خائف.

- لن تستطيع أن تخرجه من هذا الثقب الصغير.. يجب أن توسع الثقب أكثر..

قالها سهيل من خلفي، وكان صوته راجفاً، كنت ألهث وأنا أوسع الثقب.. لذلك فضلت أن أتكلم ليضيع خوفي في لهاث التعب:

– سوف لن نخرج شيئاً الآن.. نريد أن نطمئن فقط لوجوده، ثم نوسع الثقب.

– ومن الذي سيمد يده؟

سأل بهدوء، ولكن بخوف.. بينما أخذت أنظف جوانب الثقب، وكانت تنبعث منه رائحة نتن قاسية، وتجاهلت سؤاله.

– من الذي سيمد يده؟

سأل مرة أخرى، فنهضت هذه المرة وواجهته.

– أي واحد منا سوف يمد يده.. أنت لست خائفاً؟ أليس كذلك.. أتدري ماذا يوجد في الداخل؟ جمجمة مثل تلك التي يحملها الطلاب كل صباح في الكلية... هذا كل ما في الأمر.

– إذن مد يدك أنت..

قالها بيأس.. كان خائفاً أشد ما يكون الخوف، وكان قد وصل إلى نقطة لم يستطع أن يستمر فيها باللعبة.. أما أنا فلم أكن أتصور أي تراجع بعد كل ما فعلنا، فقلت بهدوء:

– نعم... سوف أمد يدي أنا.

ركعت على ركبتي، وأنزلت ذراعي في الثقب، وطوال دقائق عديدة لوحت ذراعي داخل القبر دون أن أمس شيئاً، فنهضت واقفاً.

– لم أستطع أن أصل إلى القاع... أنت نحيف أكثر مني. ما رأيك أن تمد يدك؟ لقد رأيت بعينيك، لم يكن ثمة أي شيء راعب.

نظر إلي بتشكك هادئ، برهة، ثم خطا، وثنى ركبتيه تحته ومد يده.. كان وجهه أصفر، ثم عاد إليه لونه وبدا لي أنه لم يعثر على شيء:

– لم أصل إلى القاع.

قالها فرحاً بعض الشيء.. بينما انحنيت أنا في مواجهته قائلاً:

– اثنِ كتفك إلى تحت أكثر.. يجب أن لا نعود بلا شيء، حاول..

دس سهيل ذراعه أكثر، ثم أخذ يحشر كتفه وهو مستلق كلية على جنبه.. ووجنته ملتصقة بالتراب.

– هل لمست شيئاً؟

أجاب بصوت متقطع:

– ليس بعد.

نهضت واقفاً ووضعت يدي على جنبي، كانت الحماسة تبدو على سهيل.. وكان يبذل جهداً مستمراً وعنيفاً.

لست أذكر ما الذي شغلني في اللحظة التالية عن سهيل، إلا

إني صحوت فجأة على صياح راعب متصل، وفي غمرة الخوف المفاجئ، الذي أحسسته في مفاصلي يئز أزيزاً متصلاً، شاهدت سهيلاً يدور حول نفسه ووجهه يتمسح ببلاطة القبر، وكان يبذل مجهوداً هستيرياً لإخراج ذراعه من الثقب، لقد لمحت عينيه فيما كنت أشده من ذراعه الأخرى محاولاً إخراجه، ولن أنسى منظر تينك العينين المفتوحتين حتى أقصاهما أبداً، وكانت شفتاه الزرقاوان ترجفان وهو يعلك بين أسنانه صياح حيوان مذبوح، وكان كله ينتفض فوق البلاطة وكأن يداً رهيبة لشيطان غير مرئي تهزه بعنف، وحينما استطعت أن أخلص ذراعه من الثقب لم يتوقف عن الصراخ، وكانت أطراف الثقب المشرشرة قد جرحت كتفه وساعده جروحاً غائرة أخذت تنزف.

وقف سهيل، دون أن يتوقف عن الصراخ العالي البشع، وكنت أنا بدوري قد أخذت أرجف دون أن أدري ماذا يتعين علي أن أفعل، أخذت أهزه من كتفيه، إلا إنه كان يدور حول نفسه، وينتفض بين يدي كمن به مس.. ثم صمت فجأة، وكأنه ليس هو من كان يصيح قبل هنيهة، واستدار، فواجهني مطبقاً شفتيه الزرقاوين بإصرار، كان وجهه بلا لون، وكانت عيناه مدورتين وحمراوين، وعلى جبينه كانت تختلط حبيبات العرق برمل البلاط الناعم، حدق إلي وكأنه ينظر

– خلالي – إلى شيء كريه، ثم فتح شفتيه، وصاح في وجهي ضاغطاً كلماته بين أسنانه:

– أصابعي.. أصابعي.. دخلت في عينه!

أخذت أرتجف، ولكن خوفي من سهيل كان أشد من أي شيء آخر... فأخذت أهزه من كتفيه بعنف، وأصيح به:

– أيها المجنون! هذا قبر قديم... عمره أكثر من خمسين سنة.

نظر إلي ببلاهة، كان واضحاً أنه لم يسمعني، وأخذ يردد:

– عيناه.. أصابعي دخلت في عينيه..

إن الذي تبقى من قصة سهيل ليس طريفاً! ولماذا لا نقول الآن إن الفكرة كانت فكرتي؟ وإنه لم يكن مطلوباً منا في السنة الأولى من كلية الطب أن نشتري هيكلاً عظمياً.. ولكننا أردنا، أنا وسهيل، أن نحصل على هيكل عظمي لنشعر أنفسنا بأننا صرنا في كلية الطب.

لقد عدنا، سهيل وأنا، إلى الجامعة عصر ذلك اليوم، وكنت أنا مريضاً، أما سهيل فقد أخذ يروي القصة لبقية الطلبة وهو يرجف كشيء ممزوق.. وفي الأيام التي تلت، استمر سهيل يروي القصة لكل من يصادفه؛ وكان يشرح كيف دخلت أصابعه في عيني الميت بتفصيل مذهل، وهكذا وجدت الجامعة نفسها مضطرة إلى طرده من كلية الطب بعد أن يئست من إصلاح سلوكه، وبدا للجميع أن

سهيلاً قد جن، أما أنا فلقد انتقلت إلى كلية الحقوق بعد أن عجزت عن مشاهدة أي هيكل عظمي..

واليوم، وبعد أن مرّ على الحادث أكثر من سبع سنين، برهن القدر أنه كان عادلاً وسخيفاً معاً.. أنا أذكر كيف قال لي عمه غداة الحادث أنه لم يكن يأمل أن يستطيع سهيل الوصول إلى المقبرة، وأنه توقع أن يعود إليه مرعوباً فيعطيه ثمن الهيكل.. أما أبي فلقد سبّح ربه طويلاً حينما سمع القصة، وقال لأختي أن اللصين لقيا جزاءهما من القبر والميت، وهكذا فلقد وصل به الأمر إلى الاعتقاد بأن القبر الذي نبشناه كان قبر ولي، فأخذ يقصده كل فجر يتبارك برمله وطينه ويصلي جواره...

نعم، كان قدراً عادلاً وسخيفاً معاً.. ذلك أني عرفت أمس فقط، وبعد مرور أكثر من سبع سنوات، عرفت صدفة قصة المقبرة التي قصدناها.

المقبرة تلك لم تكن مقبرة.. كانت أرضاً مهملة لفلاح تركي، حرص أيام المجاعات أن يبني فيها قبوراً من طين، لم تكن في الواقع إلا أغطية لمستودعات صغيرة خزن فيها القمح والطحين كي لا تسرق أو تصادر، وترك التركي وصية لم تفتح إلا يوم أمس حين مات، وكان السر في تلك الوصية.

وأمـس فقط، استلم الورثة الأرض ليزيحوا عنها القبور، وليزرعوها..

ونشرت صحف المدينة الخبر في صفحاتها الأولى.

بيروت، ١٩٦٢/٨/٢٧

كانَ يومَذاك طِفلاً

مسح الزبد المتوهج باحمرار الشروق رمال الشاطئ الفضي، وكانت أشجار النخيل المعوجة تنفض عن سعفها الكسولة المسترخية نوم ليلة البارحة، وترفع أذرعتها الشوكية إلى الأفق حيث كانت أسوار عكا تشمخ فوق الزرقة الداكنة، وإلى يمين الطريق القادم من حيفا، صاعداً إلى الشمال كان قرص الشمس الكبير يطل من وراء التلال فيصبغ رؤوس الأشجار، والماء والطريق، بلون أرجواني متضرج بالحياء المبكر. تناول أحمد شبابة القصب من السلة واتكأ في ركن السيارة وأخذ ينفخ عتابا مجروحة، لعاشق أبدي، استطاع أن يعيش في كل القرى التي تتناثر كنجوم أرضية ساكنة، في طول الجليل وعرضه.

وفيما كان الباص ينسرب في أنفاس الشروق، كان اللحن المجروح يكمل الطبيعة، وهذا تماماً هو السبب الذي من أجله لم

يفاجئ النغم أحداً من ركاب السيارة، فقد كانوا يتوقعون أن ينبثق اللحن انبثاقاً من كل شيء حولهم، والمفاجئ كان افتقاده، في واقع الأمر.

كانت الحقول تنسرح إلى اليمين، تموج بالاخضرار المضرج، وكانت الأمواج تواصل محاولاتها الأبدية في تسلق الرمل الفضي، وفي ذلك الكون الصغير المطوق بمعدن السيارة، باللحن الكامد، كانت علاقة من نوع ما، غير منطوقة وغير مرئية، تربط بين عشرين إنساناً لم يتبادلوا، خلال حياتهم كلها، إلا تحية ذلك الصباح وهم ينتظرون السيارة في شارع الملك فيصل بحيفا.

وكان العالم الصغير ذاك مزيجاً من عمال امتصهم الميناء، مثل شافطة وحشية، من كل ثقوب الجليل، وفلاحين من قضاء حيفا صاهروا، منذ زمن لا يستطيعون الوصول إليه بذاكرتهم، رجالاً ونساءً من قضاء صفد، وطفل واحد من أم الفرج أرسلته أمه إلى حيفا ليرى فيما إذا كان أبوه ما يزال حياً، وهو يعود الآن بالجواب، ومحام وكّل بقضية أرض في الكابري ويتعين عليه فحصها قبل جلسة المحكمة، وامرأة تسعى إلى خطب فتاة لوحيدها، وسلال فيها طعام وخبز مرقوق وحمام طبخ في الطوابين، ولعب أطفال، وصفارات، ومكاتيب حملت على الموقف من غرباء إلى غرباء،

وشبابة من قصب لفتى أغلقت مدرسته قبل يوم واحد فقط، وسائق يعرف الطريق مثلما يعرف زوجته.

من حيفا، إلى الطريق المتعرج الذي يطوق الخليج كالعقد، صعوداً حيث ينبثق النخيل مطعوجاً متراجعاً حائراً في عراكه الصامت الممض مع الرياح القادمة من البحر، فوق نهر النعمين الذي يصب حزيناً متعباً ولكن نقياً في الموج الصاخب فيرده، بهدوء عنيد، إلى الوراء، ومن هناك تتسلق السيارة الطريق إلى عكا، إلى المنشية، إلى السميرية، إلى المزرعة، إلى نهاريا، لتنعطف شرقاً وتغوص عبر عشرات من القرى، ملقية طوال الطريق راكباً هنا وسلة هناك ورسالة إلى رجل ينتظر، وزوجاً لامرأة لم تستطع أن تنتظر.

قال رجل لآخر يجلس قربه:

– هذا الفتى يلعب الشبابة جيداً.

إلا إن الرجل الآخر لم يجب، أطلق بصره عبر النافذة، وترك للحن أن يخضه، كجرة الزبدة.

وألقى الطفل رأسه في حضن العجوز التي تجلس قربه ونام، وأحضرت امرأة أخرى، لا تعرفه، رقاقة محشوة ببيض مسلوق مبهر وجعلت تنتظر أن يصحو لتطعمه، ودندن السائق أغنية تتماشى مع اللحن، عن فتى يستطيع أن يشيل جبلاً ويضعه فوق بيت الفتاة

التي أحب، إذا ترددت في الهروب معه إلى كهف ليس فيه إلا الحصيرة والرغيف وحبات زيتون، وصدره.

عكا، أمـام الشبابيك، المقبرة أولاً إلى يمين الطريق مع المنعطف، ثم محطة إلى اليسار، وتمضي فيما بعد البيوت المبنية بالحجر القدسي المنفوخ، مثل الرغيف، ووراءها حدود الحديقة العامة تصفر فيها أشجار الكينا العالية، ومن بعيد تبدو قمم السور وأبراجه من حجر بني أطلت الأعشاب الخضراء من شقوقه، وإلى اليمين كانت بيوت جديدة، صغيرة ومزروعة مع ورد عنابي غزير تنبثق صفاً وراء صف، وفي الأفق كان تل الفخار وقـوراً بقمته المسطحة وسفحه المسالم المزروع بقبور جنود لم يورثهم عنادهم إلا الموت دون أن يروا أبعد من السور، ثم، إلى اليسار، مبنى الصحية الحجري، وسلسلة المرائب التي لا تنام وهي ترقب صفوفاً من الدواليب ترتفع كالبراميل أمام بواباتها الملطخة بالشحم، وسيارات محطمة تتسلقها النباتات البرية بانتظار أن تصلح أو أن توزن أو أن يأكلها الصدأ.

خلع رجل معطفه وغطى الطفل، وتناول رجل آخر، اسمه صلاح، برتقالة من سلته، قشرها وقدمها إلى جاره أولاً كما تقتضي الأصول، وتحدث رجلان آخران عن موسم الزيت، وروت امرأة بدينة،

كانت قد ذهبت إلى الحج قبل عام واحد، كيف نسف اليهود في يافا داراً للأيتام وكيف تناثرت جثث الأطفال على فوهة شارع إسكندر عوض ممزوجة بحبات البرتقال المفزورة، فقد وضع اللغم في سيارة شحن مملوءة بالبرتقال أوقفت أمام درج الميتم، وقال شيخ معمم إن من يقتل يتيماً سيقطع الله يديه، وإن قدرة الله على الانتقام، في هذه الحالة، لا يتطرق إليها الشك.

قبل نهاريا بخمس دقائق، صحا الطفل، وتوهجت الشمس، وحضّر رجل نفسه ليغادر السيارة، وشوهدت عربة محملة بالخضار يجرها حمار أبيض صغير على طرف الطريق، وصمتت الشبابة، وقال السائق بصوت مرتفع:

– خير انشاء الله!

وأطل الرجال، من فوق ظهور المقاعد، إلى الطريق، وقال أحمد:

– دورية..

ولكن صلاح صحّح:

– لا، إنهم يهود.

وقالت الحاجة:

– يا لطيف ألطف..

ثم وقفت السيارة وأطفأ السائق محركها.

– انزلوا.

قالها جندي بلباس داكن الخضرة يحمل مدفعاً رشاشاً قصيراً وهو يطل برأسه إلى الداخل، نزل السائق أولاً، ممسكاً بيد الطفل، ثم أنزلت النساء، وجاء دور الرجال فيما بعد.

وجرى تفتيش دقيق للبشر أولاً، ثم بقرت السلال، وفتحت الصرر البيضاء المعقودة بعناية، وأعلن الجنديان اللذان قاما بهذه المهمة لقائدهما، وكان رجلاً سميناً قصيراً يتمنطق بمسدس صغير ويحمل عصاً سوداء، أن السلال والصرر خالية من السلاح...

وقال القائد القصير لجندي وقف إلى جانبه:

– هات الطفل.

ثم أشار إلى رجاله بأطراف أصابعه إشارة دائرية فانبرى هؤلاء إلى وضع الرجال والنساء في صف واحد، على جانب الطريق، وكان مجرى من الماء يمتد وراءهم مباشرة، ثم أحصى العدد وأعلن بالعبرية: خمسة عشر.

ضرب القائد عصاه السوداء على فخذه ضربة رقيقة، وكان الطفل واقفاً إلى جانبه غير واعٍ لأيما شيء، ثم سار بخطوات قصيرة حازمة أمام الصف المترقب، وبدأ:

– إنها الحرب، أيها العرب.. وأنتم كما تقولون دائماً شجعان، أما نحن فمجرد فئران، تعالي أنت.

ومن وراء سيارة صغيرة برزت صبية تلبس سروالاً قصيراً، وتعلق على كتفها رشاشاً، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها العاريتين على الطرف الآخر من الشارع:

– هذه حصتكِ اليوم.

سقطوا في الخندق، وغرقت وجوههم وأكفهم في الوحل، وقد تكوّموا هناك كتلة متراصة واحدة مختلطة اختلاطاً دموياً، فيما كان خيط من الدم الأحمر يتسرب من تحت أجسادهم، ويتجمع، وينساب مع جدول المياه إلى الجنوب.

التفت الرجل السمين إلى الطفل وانحنى قليلاً ممسكاً أذنه بقسوة بين أصبعيه:

– هل رأيت؟ تذكر هذا جيداً وأنت تحكي القصة..

ثم انتصب، وبعصاه السوداء صفع الطفل على مؤخرته ودفعه إلى الأمام:

– هيا .. هيا أركض بأقصى ما تستطيع، سوف أعد إلى العشرة ثم سأطلق عليك النار، إذا لم تكن قد ابتعدت بصورة كافية.

ولوهلة لم يصدق الطفل شيئاً، ولبث ثابتاً في الأرض كأي شجرة

من الأشجار المزروعة حوله ينقل بصره، وقد سقط فكه فكشف أسنانه الناقصة، بين الخندق وبين الفتاة ذات الساقين العاريتين. وفي اللحظة التالية جاءته الضربة الأخرى بالعصا السوداء فأحسها تسلخ لحمه، ولم يكن ثمة ما يفعله غير أن يطلق ساقيه للريح وقد اغتسل الطريق، أمام عينيه، بغشاوة من الدوار والضباب والبكاء.

ورغم ذلك، فقد وصلت إلى أذنيه أصوات ضحكاتهم الصاخبة فوقف، لم يدرِ كيف حدث ذلك ولماذا، ولكنه وقف، ووضع كفيه في جيبي سرواله وسار بخطوات ثابتة هادئة وسط الطريق دون أن يلتفت إلى الوراء.

وبينه وبين نفسه فقط أخذ يعد عداً بطيئاً:

– واحد، اثنين، ثلاثة...

بيروت، أيار ١٩٦٩

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



يضم هذا الكتاب ثماني قصص قصيرة كتبها غسان كنفاني على مدى سنوات متباعدة، وفي أماكن ومراحل مختلفة، وجمعت بعد استشهاده. أما «القميص المسروق»، فكانت من أوائل ما كتب في الخمسينات، وقد نشرت أول مرة في الكويت عام ١٩٥٨، حين حازت على الجائزة الأولى في مسابقة أدبية.

9 789963 610921